الفكاهة في شعر هاشم الرفاعي

يعد الشاعر الشاب الشهيد هاشم الرفاعي [١٩٣٢-١٩٥٩م] ظاهرة فريدة في تاريخ شعرنا العربي الحديث . فهو يشترك مع غيره مثل صالح الشرنوبي ، وأبي القاسم الشابي في الوفاة المبكرة والنبوغ الفني ، ولكنه يمتاز عنهما بأنه فقد حياته في مؤامرة خسيسة ، فقد اغتيل غدراً في مساء يوم ٢يوليو١٩٥٩م في النادي الرياضي في بلدته " أنشاص " إحدى قرى محافظة الشرقية على يد فتية حاقدين من أنداده

وقد طبع ديوان هاشم الرفاعي مرتين ، الأولى نشرتها وزارة التربية والتعليم بمصر عام ١٩٦٠م بتحقيق وتقديم الأستاذ محمد كامل حته ، والثانية نشرت في أوائل التسعينيات بتحقيق الدكتور محمد حسن بريغش . كما قامت إحدى دور النشر بطبع قصيدته المطولة الشهيرة " رسالة في ليلة التنفيذ " في كتيب يحمل عنوانها . وما بين كل نشرة وأخرى من شعره ، كان الشاعر الشهيد ينتقل به دارسوه من اتجاه إلى اتجاه ، وكل جماعة تحاول ادعاء موالاته وتستثمر شعره لنصرة قضاياها . وهذا ما يلاحظه القاريء بسهولة في تكلف محققي شعره .

والسطور القادمة لن تتعرض لهذه التصنيفات الجائرة لشعر هاشم الرفاعي لأنها ستقف فقط عند جانب الفكاهة في شعره . والذي تم ضمه مع الزجل في نهاية النشرة الأولى من ديوانه [سنة ١٩٦٠م] وهو جانب ليس قليلاً فقد ضم ثماني قصائد يجمعها جميعاً أنها تدور في فلك صداقاته وعلاقاته الشبابية ماعدا اثنتين

منها اتخذتا طابعاً عمومياً هما قصيدة " مشي الهلافيت " وقصيدة " الفول أكلي ما حييت " .

شعره الفكاهي في الرياضة :

نظم هاشم الرفاعي قصائد حول الفريق الرياضي الذي يمثله أولها قصيدة (الخيبة الكبرى) وقد قالها في فريق معهد الزقازيق الديني حين انهزم أمام فريق كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في مباراة كرة قدم ومطلعها :

ياخيبـــــة قـــــدَّروها بالقناطـــــير جـــاءت لنـــا في نهـــار كالـــدياجير

وفيها يقول إنه ذهب إلى "النادي" فوجده حزيناً بائساً يبكي حظه لهزيمته بسبب لاعبيه الخاسرين ، وكلهم - مع الأسف - طوال عراض يصلحون لجر عربات " الحنطور " بدلاً من الخيل والبغال . فقد تسببوا في جلب الخزي والعار لمعهدهم المرموق :

إني ذهبـــت إلى النـــادي فطـــالعني مقطَّـــبَ الوجـــه مغـــبَّر الأســـارير
يبكـــي ويـنـــدب مـــن خـــابوا بملعبـــه وفي المبـــاراة صـــاروا كـــالطراطير
مـــن كـــل شـــحط أطـــال الله قامتـــه يكـــاد يصـــلح في جـــر الحنـــاطير
مـــا للغبـــي " وللفتبـــول " يلعبهـــا يـــاليتهم علقـــوكم في الطنـــابير
أخـــزاكم الله قـــد جئـــتم لمعهـــدنا بالعـــار يافتيـــة مثـــل المـــواجير
في " المـاتش " لم تلعبـوا لكـن رأيـتكم في البرتقـــال نـــزلتم كالمناشـــير
لـو كنـت أعلـم أن الخيبـة انقسـمت مـن حظكـم في سـجلات المقـادير

لكنـــت جئـــت بطبـــال يـــزفكمُ ورحـت أتلـو عـلى لحـن المـزامير:

" لا بأس بالقوم من طـول ومـن غلـظ جسـم البغـال وأحـلام العصـافير"

والشاعر يستخدم في هذه القصيدة الكلمات العامية كما يستخدمها الشعراء الحلمنتيشيون المحترفون مثل بيرم التونسي ، وحسين شفيق المصري - رواد هذا الفن - فمن ذلك كلمة (شحط) وهي في العامية بمعنى الطويل الجسم ولكنها ذات دلالة تغمز في القدرات العقلية المرتبطة بهذا الطول ، كما يستخدم الشاعر كلمات الطراطير والحناطير والمواجير والطنابير بدلالاتها العامية المفهومة . ويستخدم كلمة (الفتبول) الإنجليزية بمعنى كرة القدم وكلمة (الماتش) الإنجليزية بمعنى المباراة وهذه الاستخدامات هي مصدر من مصادر الفكاهة في الشعر الفكه (الحلمنتيشي)لأنها ترد في سياق الوزن الشعري مضبوطة بالشكل كما لو كانت فصحى .

وحين انهزم فريق كرة السلة بالمعهد ولحق بفريق كرة القدم المهزوم ، نظم هاشم الرفاعي قصيدته (هزيمة) التي افتتحها بقوله :

تعالى يا فريق هنا تعـالى *** فدمُّك بيننا أضحى حلالا

وقد أوسع فيها فريق السلة سخرية وضمه إلى فريق كرة القدم المهزوم من حيث أن لاعبيه لا خبرة لهم بفنون اللعب ، ومهاراته . وإنما استطاعوا التسلل إلى اللعب في الفريق بالإلحاح والضغط لا بقدرات أبدوها ، أو مهارات أدوها . وكيف يصلحون للرياضة وهم غلاظ كالأفيال اكتنزت اللحوم في أجسادهم فهم يحركونها

بجهد جهيد ، ومع ذلك يتخيلون أنفسهم كالغزلان رشاقة وخفة ؟ . إن مثل هؤلاء لا يناسبهم إلا ما يناسب البغال والحمير من جر المحاريث فلا علاقة لهم بفن اللعب

لنا في " الباسكت " اختاروا فريقاً ... يحاكي في ضخامته البغالا
وفي " الفتبول " أفراد تبدَّوا ... عراضاً في ملاعبها طوالا
إذا ما صوبوا كرة يميناً ... لخيبة أمرهم طلعت شمالا
وليس لهم بها علم ولكن ... خَذُوها بالتلامة والرذالا
أيصلح للرياضة فيل قوم ... إذا ما سار تحسبه الجبالا
يحرك جسمه المكتظ لحماً ... ويحسب نفسه فينا غزالا
إلى المحراث شدوهم وإني ... سأفتل لكي نجرَّهمُ الحبالا

وتتوالى هزائم فريق كرة القدم ، فينهزم مرة أخرى وأخرى أمام فرق شبين الكوم وطنطا والمنصورة والإسكندرية ويفيض الكيل ، ولا يستطيع هاشم الرفاعي صبراً عليهم فيصرخ مطالباً بوقف هذا الفريق الخائب بل يتمنى إعدامهم لخيبتهم الشديدة وهزائمهم المتكررة :

قِفوا هذا الفريق غداة خابا ... طويلاً إن لي معه حسابا
فريق لو عدمنا لاعبيه ... إذاً والله قد فعلوا صوابا
هم نالوا الخيابة بامتيازٍ ... وأعطوا كل دلدول منابا

وتعتمد سخرية هاشم الرفاعي من لاعبي الفريق على مفارقة تبدو واضحة لمن يراهم فهم يخشون بأس منافسيهم ، وهو إذا لعبوا لم يؤدوا أداء اللاعب الماهر المتقن ، وإنما يجري أحدهم يميناً ويساراً بلا هدف ، كأنه دابة لا تعرف لها اتجاهاً

إذا ذهبـــوا إلى النـــادي تـــراهم ... - على خوف بهم - بلُّوا الثيابا !

يظـل هنالـك " المحـروس " مـنهم ... يبرطـع مثـل عجـل فيـه سـابا

ويـــبرع في الهيافـــة كـــل " فلـــق " ... يعـــرِّش حجـــرةً ويســـد بابـــا

ولا يُنْبيـــك عـــن سر المخـــازي ... كمـــن في (جـــوزة) شرب الهبابـــا

فاللاعبون الذين يتميزون بأجسام كجذوع النخيل (فلق = جذع النخل) التي تصلح سقفاً لمنزل ، لا قدرة لهم على مواجهة منافسيهم ، لأنهم ادمنوا تدخين المعسَّل !!

ويندم الشاعر على ما أنفقه المعهد على فريق لاعبيه من أموال كان المجاورون الفقراء أولى بها منهم. فلا معنى لأن يتنازل المجاورون لأمثال هؤلاء المهزومين عن حقوقهم ليشربوا بها برتقالاً في استراحتهم بين المباريات ، وهم لم يحرزوا أي نصر يستحق هذا التكريم :

فلـــوس مـــن " جرايتنـــا " عليـــه ... لوجـــه الله نصـــرفها احتســـابا

وفي " الهـاف تـايم " يطفـح برتقـالاً ... شَرَوْهُ لـــه بـــأموال " الغلابـــا"

أريحونـــا فإنـــا قـــد شـــبعنا ... كســـوفاً واكســـبوا فينـــا ثوابـــا

علـــيكم بالشـــوارع والحـــواري ... وفيهـــا فـــالعبوا كـــرةً " شرابـــا "

شعره الفكاهي مع رفاقه :

ومن قصائده الساخرة قصيدة (أمير الهعهع) تلك القصيدة التي قالها في زميل له أزهري كان منصلح الحال مستقيم الطريق إلى أن التحق بكلية دار العلوم فتبدل حاله على عكس الحال ، فكان دائماً ضحوكاً طروباً عاطفياً على غير المعهود بالأزهري ، وقد استهل قصيدته تلك بقوله :

زين الشباب الجامعي *** التابعيُّ التابعيّ

ويصف هاشم الرفاعي زميله الأزهري بأنه " دون جوان " -معشوق النساء- المدلع الناشيء في العز والنعمة ، فكان الأزهري - قبل أن يأتي إلى الكلية - مثل البعبع للفتيات ولكن بعد أن جاء ذلك الزميل الـ " دون جوان " قوبل بالترحاب من تلك الفتيات، فاستخفه الطرب ، ولعب به الخيال ورأى في نفسه غير ما يرى فيه أصدقاؤه :

الضـــــاحك المـــــرح الطـــــ ـــــروب العـــاطفي اللوذعـــي

الـــــدون جـــــوان الفـــــذ مـــــن تهـــواه ذات البرقـــع

الغيـــــدُ قـــــد دلَّعْنـــــه افْدِيـــــهِ مـــــن مُتَـــــدَلِّع

قـــد كـــان يبـــدو الأزهـــ ـــريُّ لهـــن مثـــلَ البعبـــع

حتـــــى أتـــــى هـــــذا فقوبـــــل بـــــالفؤاد المولـــــع

وتزداد سخرية هاشم الرفاعي من زميله وهو يصفه بأنه ملك للفكاهة وأمير للضحك وأنه أصبح يجذب قلوب العذارى نحوه بمشيته المختالة الفخورة ، وكلما رأينه أشرن نحوه بأن هذا هو الذي خلب عقولهن وامتلك قلوبهن :

يـــا صـــاح : يـــا ملـــك الفكاهـــة ... يـــــا أمـــــير الهعهـــــع

أصـــــبحت تجتـــــذب الـــــ ... ـــــقلوب بمِشـــــية المتقمـــــع

ويشـــــار نحـــــوك إن مـــــررت ... عـــــلى الحســـــان بأصـــــبع

ويذكره الشاعر بأصله ويسأله هل نسيَ متون الكتب الأزهرية وما حوته من علم ؟ أنسيَ مرويات الأصمعي ؟ أم نسيَ تلك الأيام والليالي التي كان يرهق فيها بصره وهو يقرأ تلك الألفاظ الحوشية الغريبة التي كثيراً ما حوتها الكتب الأزهرية

أنســـيت مـــا حـــوت المتـــ ... ـــون ومـــا رواه الأصـــمعي

أنســـيت يـــوم تخزَّقـــت ... عينـــاك في جَحْلَنْجَـــعِ

ويقول له الشاعر : بعد كل ذلك تستمتع بجلوسك مع الفتيات ولا تصدهن فإذا كان باستطاعتك خداعهن فلا يمكنك خداعنا لأننا نعرفك ونعرف أصلك وها هو ذا أثر عمامة الأزهريين ظاهر فوق جبينك :

الآن تـــــأنس بالفتـــــاة ... ولا تقـــــول افرنقـــــع

فـــإذا اســـتطعت خداعهـــن ... فإننـــا لم نُخـــدع

إني أرى أثـــــر العمامـــــة ... في جبـــــين المجـــــدع

وقد كان للشاعر هاشم الرفاعي صديق كثيراً ما كان يورطه كرمه وحياؤه في مغارم تخلف له الضيق والحاجة ، وقد نظم الشاعر هذه القصيدة في ١٥ديسمبر١٩٥٥م يداعب صديقه على أثر ورطة ذهبت بمصروفه الشهري :

مابين بؤس وضيق ... عش حائراً يا صديقي
ضيوفك اليوم جاءوا ... من كل فج عميق
وليس يأتون إلا ... في كل ظرف دقيق
" للسينما " والمقاهي ... صحبتهم .. كالغريق
ولستَ تملك قرشاً ... في جيبك المخروق
ضيعت " مصروف " شهر ... فيما لهم من حقوق
فداؤك اليوم نفسي ... من حاتيٍّ عريق

ويذكِّر هاشم الرفاعي صديقه ذلك الكريم بسفهه حين كان يقترض الأموال من زملائه المجاورين (هيكل) و (فتوح) و(عابد) وأنفق هذه الأموال على ضيوفه الثقلاء ، وترك زملاءه يعانون شظف العيش وشدائد الحياة ويلعنون اليوم الذي عرفوا فيه هذا الزميل الذي يقترض ولا يرد . وينصح الشاعر صديقه هذا بأن يختفي من أمام عيونهم ، وأن يتهرب في المرات القادمة من أولئك الضيوف الثقلاء:

كم استلفت نقوداً ... من " هيكل " المزنوق
راحت جميعاً عليهم ... يالله الشعور الرقيق

قـــــد غـــــادروك لغلـــــب ... مـــــرٍّة تنشـــــيف ريـــــق

" فتُّـــــوح " يصرـــــخ : مـــــالي ... ومـــــــالهم ، في زعيـــــــق

و" عابـــــد " بـــــات يهـــــذي ... في غضـــــــبة المفلـــــــوق

والشـــــيخ " هيكـــــل " جفّـــــت ... دمـــــــــاؤه في العـــــــروق

فـــــــنم بكـــــــل غـــــــروب ... ولا تقـــــــم في الشرـــــــوق

واهـــــرب ولا تبـــــدُ يومـــــاً ... لزائـــــــــرٍ في طريـــــــق

ومن أشهر قصائد الفكاهة التي تبرز ملامح خفة الظ لعند هاشم الرفاعي قصيدة (من وحي الرحلة) وقصتها أ، الشاعر كان في رحلة لطلبة معهد الزقازيق إلى الأقصر وأسوان ، وفي حفلة سمر أقيمت بمعسكر الشباب بأسوان مساء يوم ٣٠يناير١٩٥٦م ألقى هذه القصيدة ، وفيها يذكر كيف خدعه منظِّموا الرحلة حين طلبوا إليه أن يلتزم بالزيِّ الأزهري فجاء يتهادى بينهم "بكاكولته " و" عمَّتِه" في حين جاء زملاؤه يلبسون ثياباً خفافاً لا تقيد حركتهم :

أتيـــــت إلى هـــــذه الرحلـــــة ... أجـــــرر أذيـــــال كـــــاكولتي

وقيـــــل ليَ الـــــزي لاتنســـــه ... فلـــم تـــنج رأسيَ مـــن عمتـــي

وقـــد لـــبس الكـــل مـــا عنـــدهم ... مـــــن البنطلـــــون إلى البدلـــــة

وهأنـــــذا بيـــــنكم قـــــد ظهـــــ ... ـــرت حزينـــاً ..بهـــاتيكم البلـــوة

ويتذكر الشاعر كيف حمل حقيبة تنوء بما فيها من خبز وجبنة وملح ، ويندد بمشرفي الرحلة الذين ضيقوا على الطلاب فلم يوفروا لهم الطعام وأجبروهم على حمل تلك الأحمال الثقال من الخبز والملح والجبن ، ولم يصرفوا لهم نقوداً يقتاتون بها

وإن أنـــس لا أنـــس أمـــر الطعـــ ـــام لقـد أوقـع الكـل في ورطـة
غمـــوسي أكثـــر مـــا قـــد حملـــ ـــت وعيشي- تضـيق بـه شـنطتي
ومـــا ينفـــع الخبـــز في شـــنطةٍ وقـــد كـــان يوضـــع في قفـــة
لقـــد قـــتروا في مصـــاريفنا ومـــا " لايمونـــا " عـــلى الفكـــة
إذا قلـــت هـــاتوا لنـــا مـــأكلاً يقولـــون : هـــل نحـــن في ختمـــة؟

ويروي الشاعر كيف أن زميلهم " شاهين " جاء معه بدجاجة راح يمزقها ويتمتع بأطايبها وعيون زملائه ترمقه في حسد وحقد ، ولم يفكر في أن يعزم أيّاً منهم لمشاركته في الدجاجة مع شدة شوقهم إلى تذوق طعمها من ما عانوه مع العيش والجبن .

ويهدد هاشم الرفاعي مشرفي الرحلة بأنهم سيواجهون ثورة عاتية إذا أصبح الصباح ولم يبسطوا أيديهم المغلولة ، ويرفهوا عن الطلاب بأكلة دسمة يشمون فيها روائح اللحم ويرون الدهون تسبح في بحار الفتة والمرق :

وهـــانحن لم نلـــق زاداً لنـــا ســوى العـيش والملـح والجبنـة
و" شـــاهين " جـــاء لنـــا عامـــداً يحنســـنا اليـــوم بالفرخـــة
وراح يقطعهـــا بيننـــا ويبلـع مـا طـاب مـن لحمـة

ومـــا قـــال : هاشـــم .. خـــذ حتـــةٍ وقـــد كنـــت نفسيَـــ في حتـــة
فأقســـــم إن لم يجيبـــــوا لنـــــا لحومـــاً مـــن الغـــد بالأقـــة
ويحصـــل طـــبخ ولهـــط وشفـــ ـــط ونغـــرق في الـــدهن والفتـــة
ســـــنعلنها ثـــــورة لا تلـــــين وكـــم أشـــعل الجـــوع مـــن ثـــورة

شعره الاجتماعي الفكاهي :

لا بالملام ولا بالنصح تنتفـــــــع

**

متى أراك عن التهليس تمتنـــــع

رأيت ذقنك مثل الصوف شايبـــة

**

ولست عن سيرك البطال تنقطـــع

كييف مرمطة .. حريف شعبطـــة

**

من غير لخبطة للطيش تندفـــــع

وأنت مش عيل حتى يليق بـــــه

**

هذا الهزار وهذا اللهو والدلـــــع

قضيت خمسين عاماً كلها قـــرف

**

حتى كبرت وعاد الضرس ينخلـــع

عار عليك إذا أصبحت منحنيـــاً

**

وفيك كل صنوف الهلس ، والبـدع

وقد بدا رغم " مكياج " تزاولـــــه

**

في رأسك الأبيضان : الشيب والصلع

قطعت عمرك في هزل ومسخـــرة

**

وعندك البؤس بالتشبيح يجتمـــــــع

فكم سهرت بكازينو تبعـــــزق في

**

مصروف بيتك والأولاد ما شبعـــــــوا

وإن رأيت " لهاليبو " لك ابتسمت

**

تطب في حبها كالعجل إذ يقـــــــع

لك انبساط وتهييص وفرفشـــــــة

**

وللولية همٌّ القلب والوجـــــــــــع

وحين تطلب شيئاً منك تطبخـــه

**

أراك تخلق أعذاراً متخـــــــــــترع

اسمع كلامي يا هذا وكن رجـــلاً

**

مشيُ الهلافيت مشيٌ ليس ينبلـــــــع

الفقر يملأ بالمذلة كاســـــــــي

***

إني سأشهر في الورى إفلاســـي

لا الجيب يعمر بالنقـــــــود ولا

***

فيها الفلوس زي كل النـــــــاس

أصبحت باطي والنجوم ولا أرى

***

أحداً يخفف كربتي ويواســـــي

الفول أكلي ما حييت .. وإنـــني

***

متحرق شوقاً إلى القلقـــــــاس

قدكدت ياقومي أصيح منهِّقـــاً

***

وتخلعت من أكله أضراســـــــي

وإذا مشيت فإنني متهالـــــــكٌ

***

وأكاد ألفظ - جائعاً - أنفاســـي

البطن خالٍ - كالجيوب - وأشتهي

**

ما في المسامط من لحوم الـراس

وأمر بالحاتي فأهتف قائـــــلاً :

***

كم ذا يكابد مفلس ويقاســـــي

قد بعت مهريَّ الهدوم وفي غــدٍ

***

سأبيع حتماً للعباد نحاســـــي

ويظل ينخلع الحذاء على الثرى

***

فمقاس صاحبه خلاف مقاســـي